

من كتاب: تزييف الوعي البشري، وإنذارات الانقراض (19)

بعض فكر يحيى الرخاوي "قراءة في الفطرة البشرية (2 من 2) (الأسس البيولوجية للدين والإيمان) (2)

نشرة "الإنسان" 2021/07/11

السنة الرابعة عشرة - العدد: 5062



yehiatrakhawy@hotmail.com

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

### ملحوظة:

برجاء من سيقراً نشرة اليوم أن يبدأ بإعادة قراءة نشرة أمس

شكراً

.....

.....

بعض ما آل إليه استعمال (أو سوء استعمال) الدين حالياً عبر العالم:

إذا كانت أغلب محاولات التخلص من الدين قد فشلت مما ألزم بالعودة إلى شكل من أشكال الدين والتدين هنا وهناك، فإن هذه العودة لم تكن خالصة لوجه الحقيقة، وإنما بدت - غالباً - كنوع من المناورة على أنفسنا أساساً، حتى نبدو وكأننا اعترفنا بفشل تلك المحاولات، ومن ثم نحاول الإبقاء على التمسك بما يسمى "الدين" بأى صورة والسلام!

إن الناظر المتمعن في هذه المحاولات التوفيقية لا بد أن يعذر أصحابها بدرجة ما، حين يتبين أنها لم تكن محاولة للتخلص من الدين والإيمان، بقدر ما كانت محاولة للتخلص من سوء استعمال السلطة الدينية لكل من الدين والإيمان لصالح كل ما هو عكس الدين والإيمان.

إن ما يقال عن العودة إلى الدين ليست عودة خالصة ولا مخلص، وإنما هي تمثل نوعاً آخر من التهميش والاختزال، على جانب، كما تمثل نوعاً من الردة والنكسة على الجانب الآخر.

بعض ما صار إليه استعمال الدين (أو ما يقال عنه ديناً)

- لا يستعمل الدين كمسكن كلما لزم الأمر، (وحتى إذا لم يلزم الأمر)

هذا هو ما التصق بنوع من السكينة يحققها التدين الاستسلامي أو التسليمي. ارتبط هذا المفهوم بمقولة "النفس مطمئنة" بمعنى السكون والتسليم، أنه مثلما يحدث في الطب النفسي، فإن تحقيق السكينة يمكن أن يتم بنوعين من المعالجة: إما بتهميد الجزء المفرط النشاط من الدماغ أو من النفس بتعاطي بعض العقاقير القادرة على ذلك، ومن ثم بالعمل على إزاحة هذا الجزء أو قمعه كبتاً دائماً، وإما باحتواء هذا الجزء الناشر في كلية قادرة على استعادة هارمونية التوازن

إذا كانت أغلب محاولات التخلص من الدين قد فشلت مما ألزم بالعودة إلى شكل من أشكال الدين والتدين هنا وهناك، فإن هذه العودة لم تكن خالصة لوجه الحقيقة، وإنما بدت - غالباً - كنوع من المناورة على أنفسنا أساساً

يتبين أنها لم تكن محاولة للتخلص من الدين والإيمان، بقدر ما كانت محاولة للتخلص من سوء استعمال السلطة الدينية لكل من الدين والإيمان لصالح كل ما هو عكس الدين والإيمان.

إن ما يقال عن العودة إلى الدين ليست عودة خالصة ولا مخلص، وإنما هي تمثل نوعاً آخر من التهميش والاختزال، على جانب، كما تمثل نوعاً من الردة والنكسة على الجانب الآخر

يستعمل الدين كمسكن كلما لزم الأمر، (وحتى إذا لم يلزم الأمر)

هذا هو ما التصق بنوع من السكينة يحققها التدين الاستسلامي أو التسليمي. ارتبط هذا المفهوم بمقولة "النفس مطمئنة" بمعنى السكون والتسليم

الذي حدث في حالة استعمال

الكلى بإشراك هذا الجزء فيه، الذى حدث فى حالة استعمال الدين مسكنا أو مخدرا هو أنه قد بولغ فى التركيز على مفهوم جزئى للنفس المطمئنة كغاية فى ذاتها، تكاد تترادف فعل التدين، إن المبالغة فى تصوير دور الدين فى تحقيق السكنينة بالمعنى السلبى هو اختزال يخل بالمعنى الذى تقدمه حركة تدممه حركة الدين كدحا إلى الإبداع (الإيمان).

## 2- يستعمل الدين بعض الوقت، (غالبا فى نهاية الأسبوع)، أشبه ما يكون بنشاط ترفيهى

هذا استعمال غربى توفيقى طيب، فهو يسمح للمتدينين (وغير المتدينين) بقضاء فترة محدودة يمارسون فيها نشاطا اجتماعيا ناعما، مع جرعة مناسبة من الود والحلم، يتم ذلك فى دور العبادة فى نهاية الأسبوع عادة، أو كلما عَنَّ لهم ذلك. إن من يمارس أو يوصى باستعمال الدين بهذه الصورة يؤكد مكررا أن الدين أمر شخصى تماما حتى يصبح - من واقع الممارسة - أقرب إلى "الهواية الدمنة"، هذا استعمال قد يودى دورا اجتماعيا مفيدا، لكنه أسطح من دور الدين والإيمان فى تحقيق بشرية البشر من حيث عمق الجذور البيولوجية التى تجلى ويتجلى من خلالها الإيمان عبر التاريخ حتى قبل أن تكون الديانات أديانا.

## 3- يستعمل الدين كوسيلة لغيره، وبالذات للوصول إلى السلطة السياسية) بأى وسيلة بما

فى ذلك الديمقراطية)

الأمر فى هذا الصدد لا يحتاج إلى دليل بعد ما جرى مؤخرا فى الولايات المتحدة، وبعد ما يجرى حاليا فى أغلب البلاد الإسلامية التى يستعمل فيها النظام الحاكم، أو النظام الذى يريد أن يحكم، يستعمل الدين وهو يتصور أنه باستعماله سلطة الدين سوف يغير نوعية الحياة إلى كيف خلقها الله كما قرر هو وليس بالضرورة كما أرادها الله.

## 4- يستعمل الدين كوسيلة للتبريح والاحتكار وقل دائرة التعامل على أهل دين بذاته.

هذا من أشهر ما يربط أفراد الأقليات الدينية خاصة، وهو جائز وجارٍ أيضا بين بعض فرق المسلمين الأحدث وأمثالهم، ولعل قيام ما يسمى بالبنوك الإسلامية هو من هذا النوع من الاستعمال بشكل ما.

## 5- يستعمل الدين تبريرا للاستيلاء على أوطان الغير، وطرد أهلها - وقتل الأطفال.

وهل يحتاج الأمر للإشارة إلى الدولة العبرية أو إلى أمريكا وأفغانستان والعراق؟ أو إلى الأندلس قديما؟

فى مراحل معينة من التاريخ يصبح الدين من أقوى الدوافع لإفناء البشر من الديانات الأخرى تحت زعم هدايتهم، أعنى هداية من تبقى منهم، إلى دين بذاته.

## 6- يستعمل الدين تبريرا لما يسمى صراع الحضارات

الحضارات تتعاون، وتتتابع، وتتوارث لا تتصارع بالضرورة، هذا هو المفروض. إن صح ذلك فى سائر الحضارات التاريخية فهو يصح أكثر فى الحضارات المؤسسة على أديان إيمانية فعلاً. من باب أولى فإن الأديان الحقيقية لا تتصارع لأنها حضورٌ دائم متجدد، وليست تاريخا جامدا قامعا. إن الذى يتصارع هو أهل حضارات وأديان لم يعودوا أهلها.

## 7- يستعمل الدين لتفسير بعض العلوم والمعلومات، وبالعكس

الدين مسكنا أو مخدرا هو أنه قد بولغ فى التركيز على مفهوم جزئى للنفس المطمئنة كغاية فى ذاتها، تكاد تترادف فعل التدين، إن المبالغة فى تصوير دور الدين فى تحقيق السكنينة بالمعنى السلبى هو اختزال يخل بالمعنى الذى تقدمه حركة تدممه حركة الدين كدحا إلى الإبداع (الإيمان).

يستعمل الدين بعض الوقت، (غالبا فى نهاية الأسبوع، أشبه ما يكون بنشاط ترفيهى هذا استعمال غربى توفيقى طيب، فهو يسمح للمتدينين (وغير المتدينين) بقضاء فترة محدودة يمارسون فيها نشاطا اجتماعيا ناعما، مع جرعة مناسبة من الود والحلم، يتم ذلك فى دور العبادة فى نهاية الأسبوع عادة، أو كلما عَنَّ لهم ذلك

يستعمل الدين كوسيلة لغيره، وبالذات للوصول إلى السلطة السياسية (بأى وسيلة بما فى ذلك الديمقراطية)

يستعمل الدين كوسيلة للتبريح والاحتكار وقل دائرة التعامل على أهل دين بذاته. هذا من أشهر ما يربط أفراد الأقليات الدينية خاصة، وهو جائز وجارٍ أيضا بين بعض فرق المسلمين الأحدث وأمثالهم

يستعمل الدين تبريرا للاستيلاء على أوطان الغير، وطرد أهلها - وقتل الأطفال. وهل يحتاج الأمر للإشارة إلى الدولة العبرية أو إلى أمريكا وأفغانستان والعراق؟ أو إلى الأندلس قديما؟

يستعمل الدين تبريرا لما يسمى صراع الحضارات الحضارات تتعاون، وتتتابع، وتتوارث لا تتصارع بالضرورة.

هذا هو المفروض. إن صح ذلك في سائر الحضارات التاريخية فهو يصح أكثر في الحضارات المؤسسة على أديان إيمانية فعلاً

يستعمل الدين لتفسير بعض العلوم والمعلومات، وبالعكس في لوثة أخيرة شاعت حتى بدت أنها الحق، انتشر ما يسمى "التفسير العلمي للنصوص الدينية"، وهو نشاط جاد بعضه، حسن النية أغلبه، سطحي كله

يستعمل الدين كوسيلة لتميز أو وأد الإبداع. إن قياس كل ما يصدر من جديد (في الفكر أو في العلم أو حتى في الاقتصاد والسياسة) بتفسير جامد (قديم عادة) بنص ديني معين هو من أكبر الإهانات التي يمكن أن يجهد في نهاية النهاية أن يجهد في محاولة لإعادة وضع الدين والإيمان في موضعهما التطوري المناسب

الدين؟ (كمفهوم ومنظومة) أن الأوان أن نخطو خطوة أخرى نحو التعرف على ما يطلق عليه "دين" من أكثر من زاوية ومنطلق، ولكن علينا أن ننبه ابتداءً أن هذا التحديد ليس له علاقة مباشرة بالتفسير الديني التقليدي للفظ نفسه

الدين هو منظومة "كيانية-فكر-وجدانية" يستعمل هذا اللفظ المركب "فكر-وجداني" للإعلان الضمني أن فصل الفكر عن الوجدان هو أمر مفتعل في أغلب الأحيان

الدين بهذا الوصف يتجاوز الاعتقاد الفكري (العقلي) الخالص، ليحتوي ما هو وجدان في نفس الوقت، أما إضافة صفة ثالثة (صفة كيانية)

في لوثة أخيرة شاعت حتى بدت أنها الحق، انتشر ما يسمى "التفسير العلمي للنصوص الدينية"، وهو نشاط جاد بعضه، حسن النية أغلبه، سطحي كله. ذلك لأنه يدل على جهل خطير بكل من الدين والعلم على حد سواء. الدين - خاصة بالمعنى الذي تتناوله هذه المداخلة - هو أقدم تاريخاً وأرسخ قدماً، ولعله أكثر عمقاً وإفادة لتأكيد ماهية الإنسان حتى منذ عهد الأساطير الجيدة، أما العلم فهو في حركية دائبة متجدده، لا يعنيه أن يستمد مصداقيته من غيره.

## 8- يستعمل الدين كوسيلة لظهور أو وأد الإبداع.

إن قياس كل ما يصدر من جديد (في الفكر أو في العلم أو حتى في الاقتصاد والسياسة) بتفسير جامد (قديم عادة) بنص ديني معين هو من أكبر الإهانات التي يمكن أن يجهد في نهاية النهاية أية محاولة لإعادة وضع الدين والإيمان في موضعهما التطوري المناسب. إن الإبداع الذاتي خاصة (خبرة الكدح إلى وجه الحق تعالى باستمرار) هو السبيل الأساسي لتواصل النمو الذاتي، ومن ثم اطراد تطور النوع البشري بعد أن اكتسب الوعي، فكيف يقف الدين في وجه أي نظرية للتطور؟

## “ الدين ”؟ (كمفهوم ومنظومة)

أن الأوان أن نخطو خطوة أخرى نحو التعرف على ما يطلق عليه "دين" من أكثر من زاوية ومنطلق، ولكن علينا أن ننبه ابتداءً أن هذا التحديد ليس له علاقة مباشرة بالتفسير الديني التقليدي للفظ نفسه.

يمكن أن نعدد الأبعاد التي تميز مفهوم "الدين" كممارسة حياتية على النحو التالي:

## 1- هو منظومة "كيانية-فكر-وجدانية"

يستعمل هذا اللفظ المركب "فكر-وجداني" للإعلان الضمني أن فصل الفكر عن الوجدان هو أمر مفتعل في أغلب الأحيان. وليس معنى أنه مفتعل أنه خطأ أو سيء، لكن المقصود أنه ليس مطلوباً دائماً، وليس سليماً دائماً، ثم إن هذا الفصل لا يخدم المداخلة الحالية تحديداً.

الدين بهذا الوصف يتجاوز الاعتقاد الفكري (العقلي) الخالص، ليحتوي ما هو وجدان في نفس الوقت، أما إضافة صفة ثالثة (صفة كيانية) ليصبح المفهوم أكثر تركيباً (وليس أكثر تعقيداً بالضرورة) فإن ذلك جاء اجتهاداً ليؤكد تجاوز الدين لكل من الفكر والوجدان ليحتويهما معا وهو يعلن "موقف وجود" كلي، يكاد يستحيل فصله إلى مكوناته الجزئية. إلا على حساب حقيقته.

## 2- وهذه المنظومة هي شعورية جزئياً "فقط" الجزء الأقل غالباً.

بعد الإنجازات الأحدث في دراسات العقل والتفكير من خلال العلم المعرفي، والعلم المعرفي العصبى بوجه خاص أصبح من المسلم به أن التفكير هو لاشعوري أساساً (وليس تماماً)، إن ما يظهر في الشعور ويقاس هو نوع واحد من التفكير أو مستوى واحد منه، يترتب على ذلك أن علينا أن ننظر في هذه المنظومة المسماة الدين بما يناسبها من حيث أنها لا تقاس بنوع التفكير الظاهر (الذي يسمى عادة التفكير المنطقي أو العقلي وهي تسميات قابلة للمراجعة أيضاً)، وإنما بما يناسبه من أنه وعى كلي غائر غائى في نفس الوقت، يدفعنا هذا إلى التنبه إلى أن محاولة قراءة ما هو دين (باعتباره تفكيراً آخر) من خلال شفرة ما هو منطقي عقلي ظاهر هي محاولة محكوم عليها بالفشل من ناحيتين: الأولى اختزال الدين إلى ما يسمح به هذا العقل الظاهر،

ليصبح المفهوم أكثر تركيباً

ذلك جاء اجتهاداً ليؤكد تجاوز الدين لكل من الفكر والوجدان ليحتويهما معا وهو يعلن "موقف وجود" على، يكاد يستحيل فصله إلى مكوناته الجزئية. إلا على حساب حقيقته.

بعد الإنجازات الأحدث في دراسات العقل والتفكير من خلال العلم المعرفي، والعلم المعرفي العصبى بوجه خاص أصبح من المسلم به أن التفكير هو لاشعوري أساساً (وليس تماها)، إن ما يظهر في الشعور ويقاس هو نوع واحد من التفكير أو مستوى واحد منه

علينا أن ننظر في هذه المنظومة المسماة الدين بما يناسبها من حيث أنها لا تقاس بنوع التفكير الظاهر (الذي يسمى عادة التفكير المنطقي أو العقلي وهي تسميات قابلة للمراجعة أيضا)، وإنما بما يناسبه من أنه وعى على خانة خائى في نفس الوقت

أن محاولة قراءة ما هو دين (باعتباره تفكيراً آخر) من خلال شفرة ما هو منطقي عقلي ظاهر هي محاولة محكوم عليها بالفشل من ناحيتين: الأولى اختزال الدين إلى ما يسمع به هذا العقل الظاهر، والثانية هي اختزال العقل إلى ما استعملناه فيه مستعدين ما هو غير ذلك.

لم يقتصر أي دين، بل وما هو مكافئ للدين قبل ظهور الأديان، على أن يكون "منظومة فكر وجدانية" دون أن يتجلى في سلوك يعلن وجوده، وليس بالضرورة محتواه الفكري

ثمة صلة وثيقة بين المظهر السلوكي للدين إذ يتجلى في

والثانية هي اختزال العقل إلى ما استعملناه فيه مستعدين ما هو غير ذلك.

### -3منظومة الدين تجيب - إجمالاً عادة - عن كثير من تساؤلات الوجود الغامضة.

للإجابة على مثل هذه التساؤلات مستويان (على الأقل (المستوى الأول: هو المستوى الجاهز بالإجابات التفصيلية التي يصدرها عادة المفسرون والمفتون والمفكرون العاديون، ثم مؤخرًا بعض من يحاول أن يجعل بعض معطيات العلم تفسيراً للدين وبالعكس، أما المستوى الثاني فهو مستوى الإجابات من خلال التفكير الأعمق المتصل بالوجود والوجدان من ناحية، والمتناغم مع الكون والإيقاع الحيوي من ناحية أخرى. هذا المستوى من الإجابة أصبح - بفضل العلم المعرفي والحس الإدراكي - قادراً على إعطاء إجابات أكثر كلية وأعمق نبضا.

ظل المتصوفة يقولون بهذا المستوى المعرفي عبر التاريخ، لكنهم لم ينجحوا في أن يشرحوا ماهيته لغير من خبره، إلا أن الأمر الآن يبدو أقرب إلى الإقرار بفضل ما استحدثت من مناهج معرفية لا تستبعد آليات الرصد والتشابك العملاقة.

### -4وللمنظومة (المسماة الدين) تجلياتها في السلوك) طقوس/ عبادات)

لم يقتصر أي دين، بل وما هو مكافئ للدين قبل ظهور الأديان، على أن يكون "منظومة فكر وجدانية" دون أن يتجلى في سلوك يعلن وجوده، وليس بالضرورة محتواه الفكري، لكل أسطورة طقوسها، ولكل دين عباداته، الأصل أن تكون ثمة صلة وثيقة بين المظهر السلوكي للدين إذ يتجلى في عباداته، وبين الحضور المعرفي الغائر في الوعي المتوجه إلى غايته، (متجاوزين وصاية العقل الظاهر). واقع الحال يعلن في كثير من الأحيان أن هذه الصلة قد تكون - أو تبدو - واهية، أو منقطعة، أو حتى معكوسة.

### -5وهي (المنظومة: الدين) تفي ببعض احتياجات صاحبها) كل دين يرضى أتباعه)

إن وجود هذه المنظومة لا يستمر، وقد لا يجد له مبرراً حقيقياً، ما لم يتم بسد بعض (أو كل) احتياجات أصحابها. تختلف هذه الاحتياجات باختلاف درجة نضج صاحبها: من أول الانتماء إلى من يشبهه، حتى الوصول إلى مرحلة الإبداع الذاتي المفتوح على الوعي الفائق بلا نهاية، يقع ما بين هاتين النقطتين عدد هائل من الاحتياجات الدفاعية البسيطة (الميكانيزمات: مثل الإنكار والإزاحة والإسقاط... إلخ) إلى الاحتياجات المتوسطة (مثل الطمأنينة والاعتمادية المشروعة والحفاظ على الأمل).

### -6كما تعد الطيبين منهم بجزء طيب "مستقبلاً" عادة) لا سيما بعد الموت)

حتى الآن، لا يوجد دين، حتى الأديان غير السماوية لا يعد معتقديه بالخلص والتكامل والروعة الفائقة الانسجام. تختلف تفاصيل هذه الوعود من دين إلى دين، أغلب هذه الوعود يختص بها المخلصون للدين المتبعون لتعاليمه المؤدود لعبادته، كما يُحرم منها كل من خالف صاحب الدين المعنى، يتضاءل ربط معايشة هذه المنظومة (الدينية) بهذا الوعد المستقبلي مع اطراد النمو الفردي في اتجاه الوعي الفائق والتناغم مع المطلق، لعل هذا هو ما يفسر تنازل كثير من الصوفية عن الحرص على الجنة مثلاً في مقابل رؤية وجه الحق سبحانه وتعالى (رابعة العدوية من أشهر الأمثلة وإن لم تكن أعمقها).

### -7وينتمي إليها جماعة من البشر

لكى يكون الدين ديناً، خصوصاً بالمعنى الشائع، لا بد أن ينتمى إلى نفس المنظومة التى يمثلها عدد من البشر، إن من أهم الوظائف الإيجابية لما هو دين هو حضور "الأخر" الموضوعى فى الوعى، وفى الواقع، على حد سواء.

لا يكون الإنسان بشراً إلا بأن يكتسب الوعى بالآخر، فلا يتحقق وجوده إلا مع "آخر" من نفس الجنس، إن هذا الانتماء له ميزاته، كما أن له مخاطره: فمن ناحية هو يحقق للمتدين بعضاً مما يسمى "المصادقية بالاتفاق"، إلا أن هذه الحاجة نفسها قد تشتد حتى تظهر سلبياتها باستبعاد من لا ينتمى إلى نفس المنظومة، من وعود جنته، حتى لو توجه إلى نفس الهدف المشترك.

### وبعد؟ أسئلة جديدة

**أولاً:** هل يكفى أن نرضى بتطبيق ما ذهبنا إليه فى تحديد أبعاد ما هو دين لفهم كيف ظلت الأديان راسخة فى مستويات وعى الانسان كل هذا التاريخ؟

**ثانياً:** ألا يحتاج الأمر لمزيد من البحث الأعمق، فى جذور ما هو دين وإيمان، مما يمكن معه أن نكتشف أن تكون تلك الجذور منغرسه فى عمق ما هو بيولوجى فى تناغمه مع الكون الأوسع، بما يوازى ويدعم ذلك التناغم الإيمانى الخلاق فى الخبرة الايمانية خاصة (وفى مجال التصوف والإبداع بشكل أخص)؟

**ثالثاً:** ألا يمكن أن يكون هذا البعد الأعمق (بالبحث عن الجذور الحيوية للدين والإيمان) هو المدخل الأمثل لفهم إيجابيات الدين والايمان بلغة تسمح باستيعابهما لصالح التطور والإبداع توجهها إلى وجه الحق سبحانه وتعالى؟

**رابعاً:** إذا صح ذلك، أو بعض ذلك، ماذا يمكن أن يترتب عليه هذا ما سوف أحاول تقديمه لاحقاً.

مبادئه، وبيّن الحضور المعرفى الغائر فى الوعى المتوجه إلى غايته

لكى يكون الدين ديناً، خصوصاً بالمعنى الشائع، لا بد أن ينتمى إلى نفس المنظومة التى يمثلها عدد من البشر، إن من أهم الوظائف الإيجابية لما هو دين هو حضور "الأخر" الموضوعى فى الوعى، وفى الواقع، على حد سواء

لا يكون الإنسان بشراً إلا بأن يكتسب الوعى بالآخر، فلا يتحقق وجوده إلا مع "آخر" من نفس الجنس، إن هذا الانتماء له ميزاته، كما أن له مخاطره

هو يحقق للمتدين بعضاً مما يسمى "المصادقية بالاتفاق"، إلا أن هذه الحاجة نفسها قد تشتد حتى تظهر سلبياتها باستبعاد من لا ينتمى إلى نفس المنظومة، من وعود جنته، حتى لو توجه إلى نفس الهدف المشترك

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD110721.pdf>

\*\*\*\* \* \* \* \* \*

## شبكة العلوم النفسية العربية

نحن تعاون عربي رقيقاً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2021 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الصدار العاشر)

الشبكة تدخل عامها 21 من التأسيس و 19 على الويب

21 عاماً من الضج... 19 عاماً من الإنجازات

( التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13 )

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>